قضية نشأة اللغة الإنسانية
بين الفكر الإسلامي وغيره

د. أبو سعيد محمد عبدالمجيد*

التمهيد:

الحمدُ لله الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان، وعلمه ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد اهتم الباحثون والدارسون – منذ أقدم العصور – بقضية نشأة اللغة، ذلك، لأن موضوع اللغة إنما هو – في الحقيقة – موضوع الإنسان نفسه، الذي لم يوجد في هذه الحياة الدنيا صدفة، بل لوجوده تاريخ، كما للأرض تاريخ، وله خالق، كما لها فاطر، فمن عرف خالقه فقد عرف أسباب نشأة لغته، وهو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧).

ولو تتبعنا تاريخ المجتمعات البشرية المعروف، لوجدنا أن اللغة من أبرز الظواهر التي نالت الاهتمام في البحث والتفكير، اهتمام الفلاسفة

* مدرس بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

والمناطقة في حلقات الدرس، واهتمام الباحثين الشادين، وتفكير الناس، كل الناس، تفكير الرجل غير المثقف في بيته، أو مع أغنامه في المرعى، أو وراء محراثه تجره دابته في المزرعة والحقل، كل يفكر في إجابة لأسئلة تعبر الذهن أحياناً، وتستقر فيه أحياناً أخر، أما ونحن البشر ننحدر كلنا من آدم وحواء – عليهما السلام – فلماذا هذا التعدد في لغات أبناء آدم وحواء؟ وما لغة آدم وحواء أصلاً؟ وكيف كانت لهما؟ أبوحي وتوقيف؟ أم تطبيقاً للحاجة أم الاختراع؟

اهتم العلماء بهذا الميدان، تحركهم دوافع متباينة كثيرة. منها: الاجتماعية، ومنها: السياسية، ومنها: الاقتصادية، ومنها: القومية. ومنها: الدينية. فخلف هذا تراثاً هائلاً تراكم مع مر العصور، فيه الغث، ومنه السمين، فيه المناقشات العلمية الجادة الواعية للقضايا الرئيسة في اللغة وأصولها، ذلك فيما كتبه الفلاسفة اليونان والرومان القدماء من أفلاطون في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وأرسطو (ت: ٣٣٢ق.م) وشيشرون (ت: ٤٣ق.م) ويوليوس قيصر (ت: ٤٤ق.م) وقارون (ت: ٢٧ق.م) إلى غيرهم من العصور المتلاحقة[١].

وكانت هناك مناقشات أقل عمقاً، وأبعد عن الدقة العلمية، تقوم معظمها على محاولات لربط اللغة بمعتقدات السحرة، أو كانت وليدة فوضى الارتجالي القديم، قبل أن تخضع إلى الفكر والمنطق والوضع النظامي، تمشياً مع رقي الإنسان، هكذا يلاحظ أن في أقوال العلماء اضطراباً شديداً.

ولم يقتصر البحث في أصول اللغة على فترة معينة بل امتد حتى شمل فترة ما بعد الميلاد – أي العصر الحديث – غير أن الدرس اللغوي الحديث قرر – في نهاية الأمر – تنحية البحث في هذا المضووع من مباحثه[٢]. ذلك

---

(١) في نحو اللغة وتراكيبها، د. خليل أحمد عمايرة، (عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٤٠٤هـ)، ص: ١٣.

(٢) فقه اللغة في كتب العربية، د. عبده الراجحي، (دار المعرفة الجامعية، أسكندرية)، ص: ٧٧.

لأن (العلم) لا يبحث إلا فيما تؤكده المادة المحسوسة، وليس من سبيل – الآن – لدن الإنسان أن يصل في هذا الموضوع إلى نتيجة يطمئن إليها المنهج العلمي، وكل ما يمكننا الوصول إليه لن يكون إلا ضرباً من الاجتهاد لا يخرج عن حيز التخمين أو الافتراض، حتى إن الجمعية اللغوية الفرنسية بباريس قررت سنة ١٨٧٨م ونادت بقصر الكلام في الموضوع إلى هذا الحد، بل دعا كثير من الباحثين المعاصرين إلى عدم الاشتغال به البتة؛ لأنه أصبح غير ذي موضوع، ولا مفيد، وباعتبار أن أحداثها كانت ما قبل التاريخ(٣).

يقول فندريس: «إن مشكلة أصل اللغة تقع خارج مجال العالم اللغوي.

فالواقع أن المشكلة مرتبطة بأصل الإنسان والمجتمع، وتنتمي إلى التاريخ الإنساني البدائي. لقد نشأت اللغة بتطور المخ الإنساني، وتنظيم المجتمع. ومن المستحيل أن نبين الصورة التي اتخذتها اللغة الإنسانية في أول الأمر...»(٤).

وجدير بالذكر أن علماء الأصول المسلمين قد سبقوا المحدثين في هذا الشأن، حيث نقل السيوطي عنهم أن: الصحيح.. أنه لا فائدة لهذه المسألة، وهو ما صححه ابن الأنباري وغيره، ولذلك قيل: ذكرها في الأصول من الفضول(٥)، ومع ذلك يرفض عدد من اللغويين المحدثين هذا الموضوع رفضاً مطلقاً(٦). ويرى بعض الباحثين أن دراستها ضرورة منهجية لا ينبغي تجاهلها، كما أنها مدخل طبعي لدراسة هذه الظاهرة العجيبة، وإن كان أمراً

---

(٣) Lecturers on Linguistics, ((Berzin) Moscow, 1969), p: 15.

(٤) اللغة: فندريس، ترجمة الدواخلي، ود. محمد القصاص، (مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة)، ص: ٦ وما بعدها.

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تصحيح محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، (منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٩٨٦م)، ١/٢٦.

(٦) فقه اللغة في كتب العربية، د. عبده الراجحي، ص: ٧٧.

يضربه في ميتافيزيقا التاريخ، خاصة وأن التخيل والافتراض – هنا – لهما سند من الواقع، ولم ينطلقا من فراغ، بل لهما واقع علمي، وظاهرة ملموسة[٧].

هكذا تعددت الآراء، وكثرت الأقوال بصدده، وبقي أمر الدراسة اللغوية بين اندفاع بقوة وتراجع وجمود، غير أني لا أتردد أن أقول: إن أصل اللغة يرتبط بأصل الإنسان، ويعود إلى تاريخ الإنسان الأول، وكلما ازدادت معرفتنا بتأريخ الإنسان فيما قبل التاريخ المدون ازددنا معرفة بأصل اللغة، وكلما تطلعنا إلى كشف حجب الأستار والأسرار التي تحجب عنا معرفة أصل اللغة عرفناها؛ لأن أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الإنسان ذاته، وتطور مخه، وتطوره الاجتماعي.

وعلى هذا فقضية اللغة وأصل نشأتها ليست قضية لغوية فحسب، ولا تدخل في نطاق علم اللغة وحده، وإنما هي داخلة في نطاق علوم الكون وصور الوجود، كما هي داخلة في نطاق السيكولوجيا، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، وغيرها. ونحن نعلم أن العلم اليقين لا يعترف بشيء اسمه الحدس والخيال.

بناء على هذا ينبغي لنا أن نرجع إلى أصل المعارف جميعاً، وهو القرآن الكريم؛ لأن كل فكر بشري نتج عن فكر مستقل – ولم ينطلق من مفاهيم الإسلام الثابتة القاطعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة – لا يمكن وصفه بأنه فكر إسلامي[٨]، وفكر يحل المشكلات البشرية حلاً صحيحاً، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩). قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وحرام، وقول ابن مسعود أعم

(٧) علم اللغة العام، د. توفيق شاهين، (مكتبة وهبه، ط١، ١٤٠٠هـ)، ص: ٥٠.
(٨) تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبدالحميد، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ) ص: ١٤.

وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع: من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم[٩].

ولو أن الباحثين من المسلمين وغيرهم اعتمدوا على القرآن الكريم اعتماداً كافياً لما جاءت أفكارهم مضطربة، ولما أدت إلى اختلاط وبلبلة في هذه المسألة وغيرها.

لا جرم أن القرآن الكريم يبين لنا أن تاريخ الإنسان ليس أسطورياً، ولا خيالياً، ولا فردياً. وإنما له أصل ثابت، وخالق خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً مذكوراً، ويقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨)، وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ...﴾ (الأعراف: ١٨٩)، وقال أيضاً: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ (الزمر: ٦).

إن الله – تبارك وتعالى – ينبه على أنه خلق جميع الناس من أصل واحد – وهو نفس آدم –، وأنه أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها – وهي حواء –، ثم نشر وفرق منهما خلائق كثيرين: ذكوراً، وإناثاً[١٠].

إذا ثبت هذا فإن أصل اللغة يعود إلى آدم وحواء، وإن دراسته ليست ضرباً من التخمين والافتراض، وإنما هي ضرورة إنسانية، لا يمكن تغافلها؛ لكي نصل إلى حقيقة الإنسان، ومن ثم إلى الخالق الذي إليه تصير الأمور كلها.

---

(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (دار الحديث، القاهرة، ط٧، ١٤١٤هـ)، ص: ٥٦٣.
(١٠) المصدر نفسه: ١: ٤٢٤، ٢:١٥١، ٢٦٢، ٤:٤٧.

ويجدر بنا أن نلم بالنظريات المختلفة التي حاولت كشف أصل اللغة وكنهها؛ استكمالاً للمنهج، واستعراضاً لتفكير القدماء، وتبياناً لما وصل إليه القدامى:

١ – نظرية الإلهام والوحي والتوقيف:

تذهب إلى أن الله الخالق أوحى إلى الإنسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء بعد أن علمه النطق. وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني **هيراقليط** (ت: ٤٨٠ق.م)، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها **لامي lami**، والفيلسوف **دونالد**[١١]، ومن العلماء المسلمين في العصور الوسطى: **أبو عثمان الجاحظ** (ت: ٢٥٥هـ)، و**أبو علي الفارسي** (ت: ٢٧٧هـ)، و**أبو الحسن الأشعري** (ت: ٣٢٤هـ)[١٢]، و**أحمد بن فارس** (ت: ٣٩٥هـ) الذي يرى أن لغة العرب توقيفية[١٣].

يبدو من قول ابن فارس أن اللغة العربية هي لغة آدم عليه السلام؛ لأنه ذكر أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم – عليه السلام – قبل موته بثلاثمائة سنة[١٤]. وقد ذكر **السيوطي** نقلاً عن ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس: أن «آدم – عليه السلام – كان لغته في الجنة العربية، فلما عصى سلبه الله العربية، فتكلم بالسريانية، فلما تاب رد الله عليه العربية»[١٥]، قال عبدالملك بن حبيب: «كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، إلى أن بعد العهد وطال، حرّف وصار سريانياً...

---

(١١) علم اللغة، د. علي عبدالواحد وافي، (دار النهضة، مصر، ط٩، ١٩٤٠م)، ص: ٩٧.

(١٢) في علم اللغة العام، د. عبدالصبور شاهين، (ط٢، ١٣٩٧هـ) ص:٢٩، وانظر المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ١:٢٣.

(١٣) الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، ت: د. عمر فاروق الطبّاع، (مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ)، ص:٣٦.

(١٤) المصدر نفسه: ص: ٣٨.

(١٥) المزهر، السيوطي، ص:٣٠.

وكان يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرّف... وبقي اللسان في ولد أرفخشذ بن سام إلى أن وصل إلى يشجب ابن قحطان من ذريته، وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي»[١٦]. ويرى علماء العبرانية – وتابعهم كثير من مشاهير علماء النصرانية وغيرهم –: أن اللغة العبرانية هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم – عليه السلام – في ولده شيث، حتى انتهت إلى إبراهيم عن طريق عابر بن سام. ويستظهر لصحة دعواهم بأن كثيراً من الأسماء الواردة في حديث الخلق وما بعده إلى الطوفان مثل: آدم، وعدْن، وفيشون، وجيحون، وغيرها، أسماء عبرانية.

وادعت السريان – ووافقهم كثير من مؤرخي الشرقيين كالمسعودي وابن خلدون وغيرهما: أن أصل اللغات كلها السريانية، ودليلهم في ذلك: أن نوحاً والذين كانوا معه في الفلك نزلوا بعد الطوفان بأرض الجزيرة وما يليها من بلاد ما بين النهرين المجاورة لأرمينية، حيث استقرت السفينة ولغة تلك البلاد منئذ الكلدانية – وهي والسريانية لسان واحد، – وهذه الحجة هي حجة الأرمن عينها[١٧]. ووقف عالم تركي في العصر الحديث ليعلن أن التركية هي صاحبة السبق على جميع اللغات[١٨]. والحجج التي قدمها هؤلاء وهمية غير علمية. وأما البراهين التي قدمها المسلمون هي نقلية؛ لأنها مروية عن ابن عباس وغيره، وقد ذكر ابن منظور أن لسان أهل الجنان عربي[١٩].

أدلة أصحاب التوقيف:

المؤيدون لهذا الرأي – من باحثي الفرنجة – يعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في العهد القديم من الإنجيل، إذ يقول: «**والله خلق من الطين جميع**

---

(١٦) المصدر نفسه: ص: ٣٠ وما بعدها.

(١٧) أبحاث لغوية، إبراهيم اليازجي، ت: يوسف قزماخوري، (دار المرا،، ط١، ١٩٩٣م)، ص:٩ وما بعدها.

(١٨) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، (القاهرة، ١٩٥٨م) ص:١٠.

(١٩) لسان العرب، ابن منظور، (دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ).

حويانات الحقول، وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم، ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. فوضع آدم أسماء لجميع الحويانات المستأنسة، ولطيور السماء، ودواب الحقول»[٢٠]

وهذا النص كما ترى لا يدل على شيء مما يقوله أصحاب هذه النظرية، بل يكاد يكون دليلاً على هذه النظرية لا معها[٢١].

ويذكر د. توفيق شاهين أن أبا عثمان الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) ارتضى هذه النظرية[٢٢]، حيث قرر أن الله – سبحانه – أنطق نبيه إسماعيل بالعربية، دون سابق تمهيد أو تعليم. ويقول في كتابه البيان والتبيين: وقد جعل الله إسماعيل – وهو أعجمي الأبوين – عربياً؛ لأن الله – تعالى – لما فتق لسانه بالعربية المبينة – على غير التلقين والتدريب، وعلى غير التمرين والتدريج – وفطره على الفصاحة على غير النشوء والتمرين، وهو ابن أربع عشرة سنة، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء، وركّبه اختراعاً على ذلك التركيب، وسواه تلك التسوية، وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم. وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها، وجعل ذلك برهاناً على رسالته، ودليلاً على نبوته، وصار أحق بهذا النسب، وأولى بشرف ذلك الحسب[٢٣].

وهذا النص لايدل على أن الجاحظ كان يرتضي بمذهب التوقيف، بل يدل على أن الله ألهم إسماعيل اللغة العربية إلهاماً، كما ورد ذلك في الحديث عن جابر رضي الله عنه: «أن رسول الله – ﷺ – تلا ﴿**قرآناً عربياً لقوم**

---

(٢٠) سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآيتان: ١٩ و٢٠.

(٢١) فقه اللغة، د. إميل بديع يعقوب، (دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨٦م، بيروت) ص:١٥، وانظر فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي: ص:٩٨.

(٢٢) علم اللغة العام، د. توفيق شاهين، ص: ٥١.

(٢٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبدالسلام هارون، (الناشر مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة، ١٩٧٥م)، ص: ٣/ ٢٩٠.

يعلمون﴾[٢٤]، ثم قال – ﷺ –: «أَلْهِمَ إسماعيل هذا اللسان إلهاماً»[٢٥].

وأما **ابن فارس**: فإنه كان أميل إلى التشيع، كما كان أميل إلى المنهج الكوفي في الدرس اللغوي، وكلا المذهبين خليق بأن يدفع ابن فارس إلى القول بالتوقيف. وقد عقد بابا بعنوان: «القول على لغة العرب، أتوقيف أم اصطلاح؟» يقول فيه[٢٦] أقول: إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)، ثم يحاول تفسير المقصود (بالأسماء) بقوله: وكان ابن عباس يقول: علّمه الأسماء كلها. هي هذه التي يتعارفها الناس: من دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك: من الأمم، وغيرها.

وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء. وقال الربيع: إنما علمه أسماء الملائكة وقال عبدالرحمن بن دريد: علمه أسماء ذريته أجمعين.

ثم يقرر أنه يذهب إلى قول ابن عباس – أي أن الله علم آدم أسماء الأشياء بما هي معروفة لدينا الآن – ثم يحاول شرح الصيغة اللغوية التي نزلت بها الآية الكريمة فيقول: «فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهب إليه لقال: (ثم عرضهن أو عرضها) فلما قال (عرضهم) عُلِمَ أن ذلك لأعيان بني آدم أو الملائكة؛ لأن موضوع الكناية[٢٧] في كلام العرب يقال لما يعقل: (عرضهم)، ولما لا يعقل (عرضها، أو عرضهن) – قيل له: إنما قال ذلك – والله أعلم – لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل، فغلب ما يعقل، وسنة من سنن العرب، أعني (باب التغليب). وذلك لقوله جل ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن

---

(٢٤) فصلت: ٣.

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في كتاب التفسير، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢٦) الصاحبي في فقه اللغة، أحمد ابن فارس، ص:٣١.

(٢٧) الكناية: هي الضمير في اصطلاح الكوفيين.

يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ (النور: ٤٥) فقال: (منهم) تغليباً لمن يمشي على رجلين، وهم بنو آدم».

أما **ابن جني** (ت: ٣٩٢هـ) فيشرح هذه الصيغة بقوله: فإن قيل: فاللغة فيها أسماء، وأفعال وحروف، وليس يجوز أن يكون المعلم من ذلك الأسماء – دون غيرها – مما ليس بأسماء، فكيف خص الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القبل الثلاثة، ولابد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة الأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء به جاز أن يكتفي بها مما هو تال لها ومحمول – في الحاجة إليه – عليها[٢٨].

ثم يقدم ابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة أدلته على أن اللغة توقيفية فيقول: «والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق»، و«خلة أخرى أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل على اصطلاح قد كان قبلهم. وقد كان الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به. وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم. ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلا بانقضائه، ولاتزول إلا بزواله، وفي كل ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب»[٢٩].

ومن الواضح أن الأدلة التي قدمها ابن فارس غير شافية؛ لأن موضوع

---

(٢٨) الخصائص، ابن جني، ت: الشيخ النجار، (دار الكتب المصرية، ١٣٧١هـ)، ١/ ٤١-٤٢.
(٢٩) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص:٣٧ وما بعدها.

الاحتجاج باللغة ليس دليلاً على كونها توقيفية، وإنما حصره في زمان معين، بل في بيئة لغوية معينة يرجع لأسباب منهجية تتعلق بالصحة اللغوية، وبالبعد عن التأثر باللغات بالأحرى، ومع ذلك فإنهم لم يقفوا بالاحتجاج عند عصر الرسول – ﷺ –، بل ذهبوا به إلى عهد بشار بن برد، أو إبراهيم بن هرمة، أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي(٣٠). على أن ابن فارس لم يستطع أن يتصور أن اللغة أوحيت من عند الله دفعة واحدة، ومن ثم حاول تفسير تطورها، مع الالتفات إلى ما يمكن أن يكون هنالك من أثر للتشيع في قصوره تعلم اللغة على الأنبياء وحدهم عليهم السلام، فيقول: «ولعل ظاناً يظن أن اللغة التي قلنا: إنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد. وليس الأمر كذلك، بل وقّف الله – جل وعز – آدم – عليه السلام – على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثم علم بعد آدم – عليه السلام – من عرب الأنبياء – صلوات الله عليهم – نبياً نبياً ماشاء الله أن يعلمه، حتى انتهى إلى نبينا محمد – ﷺ – فأعطاه الله – تعالى – ما لم يعطه أحداً قبله – تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرّ الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت.

فإن تعمّل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده. ولقد بلغنا عن أبي الأسود أن أمرأً كلّمه ببعض ما أنكره فسأله أبو الأسود عنه، فقال: «هذه لغة لم تبلغك»، فقال له: «يا ابن أخي، إنه لا خير لك فيما لم يبلغني» فعرّفه بلطف أن الذي تكلم به مختلق»(٣١).

ومعنى ذلك أن ابن فارس يرى أن اللغة العربية قد اكتملت في عهد الرسول – ﷺ –، وأنه لا يمكن أن يجد عليها شيء، وإلا لم يكن عربياً، ومن الواضح أن هذا الرأي لا يتصل باللغة بسبب(٣٢).

---

(٣٠) فقه اللغة في كتب العربية، د. عبده الراجحي: ص:٧٩ وما بعدها.
(٣١) الصاحبي، ابن فارس: ص:٣٧ وما بعدها.
(٣٢) فقه اللغة، د. عبدالراجحي، ص:٨٠.

ثم أضاف القائلون بالتوقيف إلى ذلك وجوهاً ثلاثة أخرى[٣٣]:

أولها: أنه – سبحانه – ذم قوماً في إطلاقهم أسماء غير توقيفية في وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ....﴾ (النجم: ٢٣) وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ....﴾ (الروم: ٢٢)، والألسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها؛ ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر، فالمراد هي اللغات.

وثالثها: وهو عقلي – لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة، ويعود إليه الكلام، ويلزم إما الدور أو التسلسل في الأوضاع، وهو محال، فلابد من الانتهاء إلى التوقيف.

بناء على ذلك لا يجيز القائلون بالتوقيف قلب اللغة مطلقاً؛ فلا يجوز تسمية الثوب فرسا، والفرس ثوباً[٣٤]. اختلف هؤلاء – أيضاً – في زمان وقوع التوقيف، وقد مر بنا رأي ابن فارس آنفاً، وذكر الزركشي أن أبا منصور حكى قولاً «أن التوقيف وقع في الابتداء على لغة واحدة، وما سواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد الطوفان من الله – تعالى – في أولاد نوح حين تفرقوا في أقطار الأرض»[٣٥].

وجاء في شرح الأسماء: «قال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين: إنها كلها توقيف من الله. وقال أهل التحقيق من أصحابنا: لابد من التوقيف في أصل اللغة الواحدة، لاستحالة وقوع الاصطلاح على أول اللغات من غير معرفة من المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه، وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحاً، وأن يكون توقيفاً»[٣٦].

---

(٣٣) المزهر، السيوطي، ص: ١/١٧ وما بعدها.
(٣٤) المصدر نفسه، ص: ١/٢٦.
(٣٥) المصدر نفسه، ص: ١/٢٧.
(٣٦) المصدر نفسه، ص: ١/٢٧.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما تلك اللغة التي حصل التوقيف عليها؟ وإذا كانت تلك هي اللغة العربية فلابد من أن تكون باقية على حال واحدة. ولكنها قد تغيرت وأصبحت لهجات كثيرة.

وقدم **ابن جني** تفسيراً آخر هو: أن الله – سبحانه تبارك وتعالى – علّم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات، فكان هو وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها؛ لبعد عهدهم بها[٣٧].

وهذا القول يشبه قول ابن فارس الذي قال: إن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم – عليه السلام – قبل موته بثلاثمائة سنة[٣٨]، فقول ابن فارس وابن جني لا يستند إلى دليل؛ لأن آدم وحواء ما كانا يتكلمان إلا بلغة واحدة، وهي العربية التي تعلماها في حضرة الباري – تعالى –، وتكلما بها في الجنة، ولا حاجة إلى تعلم هذه اللغات كلها والتكلم بها.

وأما **ابن حزم** (ت: ٤٥٦هـ) بموجب تقيده بظاهر النص فيذعن لصريح الآية فيرى أنها تدل على توقيف مباشر من الله، ثم يحاول أن يعقلن هذا التفسير، فيبني جدلية النشأة اللغوية على استدلال متناسل يفضي إلى ربط قضية اللغة بالبرهان على وجود الله، باعتباره معلم كل شيء[٣٩]. على أنه – اسطراد لتدعيم نظريته – يصوغ بعض المقومات المبدئية، معتبراً إياها برهانية بالاضطرار، وتندرج أساساً على محور الزمانية، إذ يقول: وأما الضروري بالبرهان فهو: أن الكلام لو كان اصطلاحاً لما جاز أن يصطلح إلا

---

(٣٧) الخصاص، ابن جني، ص: ١/ ٤٠.
(٣٨) الصاحبي، ابن فارس، ص: ٣٨.
(٣٩) الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي، (ط٢، مط. الإمام بمصر، (د – ت)، ص: ١/ ٢٩.

قوم قد كملت أذهانهم وتدربت عقولهم، وتمت علومهم، وقفوا على الأشياء كلها الموجودة في العالم، وعرفوا حدودها واتفاقها واختلافها وطبائعها، وبالضرورة فعلم أن بين أول وجود الإنسان وبين بلوغه هذه الصفة سنين كثيرة جداً، يقتضي في ذلك قريبة وحياطة وكفالة من غيره، إذ المرء لا يقوم بنفسه إلا بعد سنين من ولادته[٤٠].

ويسير **إخوان الصفاء** على النهج الزماني نفسه في استتباع الدلائل الشاخصة وراء حدث النشأة، فيقرنون فكرة الإلهام بمبدأ التأييد الرباني الذي يتجسد في إعمال الفكرة وإنتاج القريحة ووجوب الروية[٤١]. فتخريجهم للأية تخريج من الدرجة الثانية، إذ يصبح الإلهام لا متسلطاً على اللغة مباشرة، وإنما على الاهتداء إلى وضعها.

ويذهب **السكاكي** (ت: ٦٢٦هـ) إلى تخريج آخر يقود إلى الاعتبار نفسه، وهو التقيد بمبدأ الوضع، وجعل مصدره في الدرجة الثانية من الاهتمام: «وهذا – والحق بعد – إما التوقيف والإلهام قولاً، كأن المخصص هو تعالى. وإما الوضع والاصطلاح قولاً، بإسناد التخصيص إلى العقلاء، والمرجع بالآخرة فيهما أمر واحد، وهو الوضع، لكن الواضع إما الله – عز وجل – وإما غيره، والواضع عبارة عن تعيين اللفظة بإزاء معنى بنفسها»[٤٢]

أما **الخفاجي** (ت: ٤٦٦هـ) فيذهب إلى أن التوقيف الإلٰهي مستند إلى لغة سابقة له يُفهم بها المقصود بافتراض أن المواضعة تقدمت بين آدم والملائكة[٤٣].

---

(٤٠) المرجع نفسه، ٢٨/١.

(٤١) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء: إخوان الصفاء، (بيروت، ١٩٥٧م)، ١٤٩/٣ وما بعدها، وانظر كذلك ص ١١٢، حيث يربطون نشأة اللغة بحركة الأفلاك فيعتبرون أن الله ألهم أطارد صاحب المنطق فنطق.

(٤٢) مفتاح العلوم، أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي، (ط١، القاهرة، ١٩٣٧م)، ص: ١٦٩.

(٤٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ت: علي فودة، (ط١، القاهرة، ١٩٣٢م)، ص: ٤٤.

ويرى **عباد بن سليمان**: أن الألفاظ تدل على المعاني بذواتها، ويقول الشيخ **أبو الحسن الأشعري وابن فورك**: إنها بوضع الله، ويذهب **أبو هاشم** إلى أنها بوضع الناس، ويرتضي **قوم** بأن بعضها بوضع الله،والباقي بوضع الناس. ويرى أبو إسحاق الإسفراييني أن الابتداء من الله والتتمة من الناس(٤٤). ويذهب الغزالي إلى التوقيف والاصطلاح كليهما، ويقول: «ونحن نجوّز كونها اصطلاحية بأن يحرك الله رأس واحد فيفهم آخر أنه قصد الاصطلاح، ويجوز كونها توقيفية بأن يثبت الرب – تعالى – مراسم وخطوطاً يفهم الناظر فيها العبارات، ثم يتعلم عن البعض، وكيف لا يجوز في العقل كل واحد منهما، ونحن نرى الصبي يتكلم بكلمة أبويه، ويفهم ذلك من قرائن أحوالها في حالة صغره. فإذن الكل جائز.

وأما وقوع أحد الجائزين فلا يستدرك بالعقل، ولا دليل في السمع، وقوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلها**﴾ ظاهر في كونه توقيفاً، وليس بقاطع، ويحتمل كونها مصطلحاً عليها من خلق الله – تعالى – قبل آدم»(٤٥).

ولقد حاول **إبراهيم أنيس** من علمائنا المحدثين أن يفهم الآية الكريمة: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ فهماً جديداً يساير الدرس اللغوي الحديث، فيذهب إلى أن الإنسان كان ينطق الأصوات بطريقة مبهمة لا يهدف من ورائها إلى هدف معين، ثم تصادف أن ارتبطت هذه الأصوات بأشياء معينة فصارت (أعلاماً) عليها، ثم يتطور العلم شيئاً فشيئاً إلى كلمة عامة. ويقول: ولذا نرجح أن معظم الكلمات قد أخذت مدلولاتها بطريقة المصادفة؛ أي أنها كانت أصواتاً مبهمة لا هدف منها سوى اللعب والمتعة، ثم تصادف أن نطق بها أثناء حدث من الأحداث، فارتبطت به ارتباط العلمية، وتدرج العلم معناه الخاص إلى معنى عام. فإذا فسّرت الأسماء في قوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلها**﴾ بمعنى الأعلام، ساير هذا التفسير أحدث ما ينادي به اللغويون

---

(٤٤) المزهر، السيوطي، ١/١٦ – ١٧.
(٤٥) المصدر نفسه، ١/٢٣.

في عصرنا الحاضر[٤٦].

ابن تيمية – رحمه الله – ونظرية الإلهام:

يرى **ابن تيمية** – رحمه الله – (ت: ٧٢٨هـ) أن اللغة إلهام من الله – عز وجل – بناء على هذا انتقد أن تكون في الأصل قد اتفق على وضعها جماعة من العلماء، كما ذهب إلى ذلك أبو هاشم الجبائي وغيره، ويستند في ذلك على دليلين:

الأول: إن ادعاء تواضع جماعة من الناس على وضع أسماء للمسميات يحتاج إلى صحة النقل عنهم، وهذا لا يمكن إثباته، فكيف يتأتى ادعاء صحة ما لم يثبت نقلاً؟.

والثاني: إن المنقول – المعروف عندنا بالتواتر – هو استعمال العرب للألفاظ فيما قصدوه بها من المعاني. أما الاتفاق على وضع الألفاظ تتقدم على الاستعمال فهو خلاف الواقع[٤٧].

وهذا الذي ذكره ابن تيمية وجيه؛ لأننا إذا استقرأنا شعر العرب القدامى ونثرهم تبين أنهم عبروا باللفظ الواحد على المعاني المختلفة، كما عبروا عن المعنى الواحد بالألفاظ المتنوعة. الأمر الذي يوهن دليل القائلين بالتواضع، ثم إنه ليس هناك دليل قاطع ينفي حصول هذا التواضع.

كما انتقد أن تكون اللغات التي يتكلم بها بنو آدم اليوم توقيفية – كما ذهب إلى ذلك الأشعري وغيره – استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١).

ابن تيمية وإن كان قد أقر بوجاهة رأي الجمهور الذي يقول: بأن تعليم الله لآدم شمل أسماء كل شيء، لعموم لفظ الآية، ورجحه على من قصر

---

(٤٦) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: ٣٣.

(٤٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وترتيبه، (طبعة المكتب السعودي بالمغرب، مكتبة دار المعارف، الرباط)، ٩١/٧ وما بعدها.

الأسماء على من يعقل فقط. فقد نفى بشدة أن تكون اللغات الموجودة الآن متلقاة من آدم عليه السلام، لاستحالة نقلها جميعاً، فضلاً عن أن تكون ذريته قادرة على النطق بها كلها، كما أن الواقع يكذب لوجود اختلاف كبير بين اللغات. فالأدباء إنما يعلّمون أبناءهم لغتهم التي يتكلمون بها فقط، أما لغات لم يوجد الله من يتكلم بها فلا يعلمونها لهم، لأن المولود إذا ظهر منه التمييز، سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل في ذلك المعنى، أي أراد المتكلم به ذلك المعنى، ثم هكذا يسمع لفظاً بعد لفظ، حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم، من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم، بل وما أوقفوه على معاني الأسماء. وإن كان أحياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها، كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني ألفاظها، وإن باشر أهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من أحدهم(٤٨).

فنقل اللغة من جيل إلى جيل، يتم بواسطة التلقين التلقائي أو الموجه، ولكن من غير أن يقع تواضع متقدم على الاستعمال، واصطلاح على أسماء معينة للمسميات. المشاهدة في الوضع.

وإذا كان ابن تيمية قد رفض اعتبار هذين الرأيين في تفسير نشأة اللغة للانتقادات الواردة حولهما. ولم يكن من عادته التوقف عن إصدار رأي – كما هو دأب طائفة من المتقدمين – فإنه رجح اعتبار اللغة إلهاماً في الأصل، فالإنسان يلهم الكلام كما يلهم الحيوان من الأصوات التي يتفاهم بها، فإذا كان للنوع الحيواني منطق يتواصل به غريزة وإلهاماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ (النحل: ٦٨)، فالنوع الإنساني لا يخرج من هذه السنة التي تجري على الحيوان، فقد ألهم هو أن يعبّر عما يريده ويتصوره بواسطة الألفاظ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١ – ٤).

(٤٨) المصدر نفسه، ٩١/٧ وما بعدها.

ففي نظر ابن تيمية – إذن –: «الإلهام كاف في النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة، وإذا يسمّي هذا توقيفاً، فليسمّ توقيفا. وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال»[٤٩].

٢ – نظرية الاتفاق والموافقة والاصطلاح:

تُقَرِّرُ أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالاً. ومال كثير من العلماء والمفكرين إلى هذه النظرية، منهم: الفيلسوف اليوناني **ديموكريت Democrite** (القرن الخامس ق.م)، و**رويد Reid**، و**دجلد ستيورات Duglad Stewart**، و**أرسطو**[٥٠] و**المعتزلة**، و**الأخفش الأوسط** (ت: ٢١١هـ)[٥١]، وقال بها **ابن جني**[٥٢] قبل أن يرى أن اللغة وحي وإلهام، حين رآها مذهب أستاذه **أبي علي الفارسي**، وقال بها من المحدثين أيضاً: **آدم سميت الإنكليزي**[٥٣]. ويرى أرسطو أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأن أصواتها رموز اصطلاحية، لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعنى[٥٤].

وقد عرض ابن جني لموضوع نشأة اللغة وفصل القول فيه على نحو يشير إلى منهج لغوي يتسق مع ما قدمه في كتبه جميعاً، فعقد بابا سماه القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاحية؟ قال فيه: هذا موضوع محوج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح؛ لا وحي وتوقيف، غير أنه لا يلبث أن يقدم الرأي الآخر الذي عرضناه لابن فارس آنفاً، فيقول: إلا أن أبا علي – رحمه الله – قال لي يوماً:

---

(٤٩) المصدر نفسه، ٧/٩٦.
(٥٠) فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي، ص: ٩٨.
(٥١) المزهر، السيوطي، ص: ١٠ – ١١.
(٥٢) الخصائص، ابن جني، ١/٤٠.
(٥٣) فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي: ٩٨.
(٥٤) علم اللغة العام، د. توفيق شاهين، ص: ٥٣.

هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله – سبحانه – لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي – رحمه الله – أيضاً قال به في بعض كلامه. وهذا – أيضاً – رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه[٥٥].

من الواضح أن ابن جني قد استشهد بالآية الكريمة ليبرهن على سقوط الاستدلال بها، على أن اللغة توقيفية، حين يقدم هذا الحل المعتزلي في أنه يجوز أن يكون الله قد أقدر آدم على أن واضع عليها، غير أن ابن جني يقدم في آخر الباب نصاً يدل على أنه لم يتخذ في الموضوع رأياً بعينه، وأنه لايزال متحيراً بين القول بالتوقيف والقول بالاصطلاح، فقال: «واعلم – فيما بعد – أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغول على فكري. وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة، ما يملك من جانب الفكر، حتى يكاد يطمح لي أمام غلوة[٥٦] السحر.

فمن ذلك: ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه: ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفُرق لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله – جل وعز –، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحي.

---

(٥٥) الخاصئص، ابن جني، ١/ ٤٠.

(٥٦) الغلوة: الغاية،مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاثمائة ذراع، (انظر لسان العرب، ابن منظور، مادة: غلا، ١٥/ ١٣٢، ومعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، ١٩٧٢م) مادة غلو، ص: ٥٥٨.

ثم أقول في ضد هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله – تعالى – قد خلق من قبلنا – وإن بَعُدَ مداه عنا – من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر وأجرأ جناناً. فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفيء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق»(٥٧).

ومع هذا النص فإننا نكاد نجزم بأنه يرفض القول: بأن اللغة وحي، وذلك لأن ابن جني معتزلي، والمعتزلة الذين ذهبوا إلى خلق القرآن ما كانوا ليذهبوا إلى أن اللغة وحي وإلهام، وذلك لأنه لا يتسق مع قدرة الإنسان حتى وإن كانت بالكسب.

على أن هناك سبباً آخر يكاد يقطع بأن أبا الفتح كان يذهب إلى أن الإنسان هو الذي وضع اللغة وذلك أن منهجه في كتابه كله وفي كتبه الأخرى ينبني على تناول اللغة باعتبارها مادة طبيعية محسوسة، مقياسها الوحيد هو الطبيعة والحسّ، ومن ثم فرق بينها وبين الفقه الذي تعود أحكامه إلى حكمة إلهية لا تصل إلى الحاسة الطبيعية. وعلى هذا الأساس ركز أبو الفتح بقية حديثه على الرأي الثاني – الذي يذهب إلى أن اللغة من صنع الإنسان – وبدأ يقدم شروحاً لما يتصوره لهذه العملية، ومعظم هذه الصور غير بعيدة عما فكّر فيه عدد من اللغويين في القديم وفي الحديث. وإليك نبذة مما يقوله بهذا الصدد:

«وذلك كأن يجتمع حكيمان فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به مسماه، ليمتاز من غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين... فكأنهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأومأوا إليه، وقالوا: إنسان، إنسان، إنسان، فأي وقت

(٥٧) الخصائص، ابن جني، ص ١/ ٤١.

سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق...»[٥٨].

فابن حزم يصرح بأنه لا ينكر اصطلاح الناس – فيما بينهم – على إحداث لغات شتى[٥٩] جاعلاً المجموعة اللسانية هي المعنية مباشرة بأمر المواضعة والاصطلاح؛ فتكون صاحبة التشريع في الوضع اللغوي، وإخوان الصفاء في تقديراتهم النظرية يكلون للناس أمر استحكام ما أوجبت لهم دلائل مواليدهم في وضع اللغة في الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي، وما تفرع من ذلك[٦٠].

يتعرض السكاكي للقضية نفسها مؤكداً إمكان الوضع بالذات، قاصداً به استطاعة الإنسان أن يتصرف في أداته اللغوية بالوضع، حسبما يلم به من ضروروات في التعبير[٦١].

وأكثر تصريحاً في هذا المضمار قول الفارابي (ت: ٣٣٩هـ): بأنه كلما حدث في ضمير إنسان منهم شيء احتاج إلى أن يفهمه غيره ممن يجاوره اخترع تصويتاً فدل صاحبه عليه، وسمعه منه، فيحفظ كل واحد منهما ذلك، وجعلاه تصويتاً دالاً على ذلك الشيء، ولايزال يحدث التصويتات واحداً بعد آخر ممن اتفق من أهل ذلك البلد، إلى أن يحدث من يدبر أمرهم[٦٢].

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق خلقاً، بل تتكون بالتدرج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص: ١/ ٤٤.
(٥٩) الإحكام، ١/ ٣٠.
(٦٠) رسائل إخوان الصفاء، ٣/ ١١٤ وما بعدها.
(٦١) مفتاح العلوم، السكاكي، ص: ١٦٨ وما بعدها.
(٦٢) كتاب الحروف، أبو نصر الفارابي، ت: محسن مهدي، (دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠)، ص: ١٣٨.

لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل[٦٣].

رأي إمام الحرمين عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني:

قال **إمام الحرمين** (ت: ٤٧٨هـ): إن أرباب الأصول اختلفوا في مأخذ اللغات، فمنهم: من ذهب إلى أنها توقيفية، ومنهم: من ذهب إلى أنها اصطلاحية، وذهب الأستاذ أبو إسحاق – في طائفة من الأصحاب – إلى أن القدر الذي يُفهم منه قصد التواطؤ لابد أن يُفرض فيه التوقيف. ويرى أن المختار عنده هو أن العقل يجوّز ذلك كله، فأما تجويز التوقيف فلا يرى حاجة إلى تكلف دليل فيه. ومعناه أن يثبت الله – عز وجل – في الصدور علوماً بديهية بصيغ مخصوصة بمعان؛ فتتبين العقلاء الصيغ ومعانيها. ومعنى التوقيف فيها أن يلقوا وضع الصيغ على حكم الإرادة والاختيار.

وأما الدليل على تجويز وقوعها اصطلاحاً فهو: أن لا يبعد أن يحرك الله – تعالى – نفوس العقلاء لذلك، ويعلم بعضهم مراد بعض، ثم ينشئون على اختيارهم صيغاً، وتقترن بما يريدون أحوال لهم، وإشارات إلى مسميات، وهذا غير مستنكر؛ وبهذا المسلك ينطق الطفل على طوال ترديد المُسْمَع عليه ما يريد تلقينه وإفهامه؛ فإذا ثبت الجواز في الوجهين لم يبق لما تخيله الأستاذ أبو إسحاق وجه. والتعويل في التوقيف وفرض الاصطلاح على علوم تثبت في النفوس؛ فإذا لم يمنع ثبوتها لم يبق لمنع التوقيف والاصطلاح بعدها معنى، ولا أحد يمنع جواز ثبوت العلوم الضرورية على النحو المبين[٦٤].

٣ – نظرية محاكاة أصوات الطبيعة أو نظرية البو وو Bow - wow:

وتذهب إلى أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، كأصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطبيعة، والتي تحدثها الأفعال عند وقوعها، ثم تطورت

---

(٦٣) فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي، ص: ٩٨ وما بعدها.

(٦٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، ١/٢١ وما بعدها.

الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتفعت بفعل ارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة. وذهب إلى هذه النظرية: **ابن جني** (ت: ٣٩٢هـ) قديماً، والإنجليزي **وتني Whitny** حديثاً في القرن التاسع عشر[٦٥]. وليست هذه النظرية من اختراع **ماكس مولر Max Mueller** (١٨٦٤م) كما أشار بعضهم[٦٦]، بل عرفها العلامة ابن جني، وذكر أنه نقله عمن سبقه، مما يدل على أنه كان مذهباً شائعاً ومقرراً، ويقول: وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو الأصوات المسموعات، كدوي البحر، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي صالح متقبّل[٦٧]. ويظهر أن ابن جني كان معجباً بهذه النظرية، إذ أفرد بابا سمّاه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) قال فيه: «ولو لم يُتنبه على ذلك إلا بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازباز[٦٨] لصوته، والبط لصوته. ونحو منه قولهم: حاحيت، وعاعيت، هاهيت، إذا قلت: حاء وعاء، وهاء. وقولهم: بسملت، وهيللت، وحوقلت. كل ذلك وأشباهه، إنما يرجع اشتقاقه إلى الأصوات. والأمر أوسع»[٦٩].

والواقع أن لهذه النظرية ما يؤيدها، فالطائر المسمى في الإنكليزية Cuckoo، إنما سمي بالصوت الذي يحدثه، والهرة سميت (مو) في المصرية القديمة، وفي اللغة الصينية، نسبة إلى الصوت الذي تحدثه[٧٠].

يذهب بعض اللغويين المحدثين إلى أن هذه النظرية هي أدنى نظريات

---

(٦٥) علم اللغة العام، د. توفيق شاهين، ص: ٥٤.

(٦٦) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ط١، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م)، ص: ١٧.

(٦٧) الخصائص، ابن جني، ص: ٤٦/١ وما بعدها.

(٦٨) الخازباز: الذباب يكون في الروض، (انظر المعجم الوسيط، مادة (خزب)، ص: ٢٣١.

(٦٩) الخصائص، ابن جني، ١٦٥/٢.

(٧٠) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص:١٨.

هذا البحث إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية. وهي إلى هذا وذلك تفسر المشكلة التي نحن بصددها، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمور في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره. ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها. ولكن لم يقم – كذلك – أي دليل يقيني على صحتها، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها، وإنما يقرب تصورها، ويرجح الأخذ بها.

ومن أهم أدلتها: أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل. فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية، فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به. وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة – وفي مبدأ مرحلة الكلام – يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية.

ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهرها من مظاهر حياته، تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر.

ومن أدلتها كذلك: ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية، ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه[٧١].

ينزّل **الفارابي** قضية المحاكاة في سياق التماثل الحاصل بين الألفاظ والمعاني على أساس زماني متحرك، فتكون المحاكاة نتاجاً تطورياً يحكمه مسار الزمن بفعل الإنسان في مؤسسة الكلام، وتغدو – عندئذ – قضية التماثل مظهراً دلالياً في ارتباط الدوّال بالمدلولات، ويربط الفارابي ظروف

(٧١) علم اللغة، علي عبدالواحد وافي، ص: ١٠٥ وما بعدها.

نشأة التماثل بما تكون عليه فطرة أفراد الأمة ومدى نزوعها إلى الاعتدال بموجب ميلهم إلى الذكاء والعلم وغايته في ذلك رفع احتمال القصد والإرادة، ليتأكد مبدأ العفوية الطبيعية في قضية المحاكاة.

وعلى هذا النسق يتكامل التماثل على بناء مثلث ترتبط فيه صورة اللفظ بصورة المعنى، وصورة المعنى بصورة الموجود المدلول عليه، فتكون اللغة مرآة تعكس صورة موجودة على مرآة ثانية حصلت فيها بموجب انتصاب موجود محسوس قُبالتها(٧٢).

وقد وجه إلى هذه النظرية انتقاد أساسي، من جهة أنها تعجز عن أن تفسر لنا كيف استغل مبدأ (حكاية الأصوات) في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها، وما العلاقة بين لفظة (إبريق) ومعناها؟ وما العلاقة بين لفظة (المنضدة) ومعناها وما العلاقة بين لفظ (الكتاب) ومعناها؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة، إنما العلاقة بسيكولوجية، أي من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل(٧٣).

كذلك رفضت أدلة هذه النظرية؛ لأن الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة، ولأن الدراسات الفيلولوجية للغات الشعوب البدائية: كلغات الهنود الحمر، والزنوج، وأهل أستراليا الأصليين، أثبتت أن هذه اللغات ليست بدائية ولا قديمة، بل حديثة بالنسبة إلى عمر اللغة، فوراء كل منها تاريخ مديد، لا يعلم له بدء، تطور خلاله حرفها ونحوها وأساليبها(٧٤).

٤ – نظرية محاكاة الأصوات معانيها، أو نظرية Ding dong:

هذه النظرية لا تختلف كثيراً عن نظرية البو وو Bow - wow، إذ تؤكد

---

(٧٢) كتاب الحروف، الفارابي، ص: ١٣٨ وما بعدها.

(٧٣) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص: ١٨.

(٧٤) اللغة، ج. فندريس، تعريب الدواخلي والقصاص، (ط القاهرة، ١٩٥٠م)، ص: ٣٠ وما بعدها.

أن جرس الكلمة يدل على معناها، ويظهر أن هذه النظرية أعجبت ابن جني أشد الإعجاب، فأفرد لها بابين سمى الأول: (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، وأطلق على الثاني اسم (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني).

يقول في الباب الثاني: اعلم أن هذا موضع شريف لطيف. وقد نبه عليه الخليل، وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة: النقزان[٧٥]، والغليان، والغشيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال، ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه[٧٦].

ويظهر أن الشيخ صبحي الصالح أعجب بدوره بهذه النظرية فعقد فصلاً في كتابه (دراسات في فقه اللغة) سماه (مناسبة حروف العربية لمعانيها[٧٧]. أكد فيه أن الظاهرة اللغوية التي أوضحها ابن جني في المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني تعد فتحاً مبيناً في فقه اللغات عامة[٧٨].

لقد رفضت هذه النظرية لاعتبارات عدة، منها أن الكلمات التي يمكن أن تفسر على مبدأ هذه النظرية قليلة جداً؛ فأنت إذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد – وحدة صوتية –، تجد أن معانيها متقاربة. ولكن أن ترد معاني ألوف الألفاظ إلى ثلاثين أو خمسة وثلاثين فونيما – وحدات صوتية – فإننا لا نفسر أصل اللغة، بل نزيد في غموض المشكلة، إذ لك أن

---

(٧٥) النَّقَزُ والنَّقَزَانُ، كالوَثَبَانِ: صُعُدًا في مكان واحد، (انظر لسان العرب، مادة نقز، ٥/٤١٩).

(٧٦) الخصائص، ابن جني، ٢/١٥٢ وما بعدها.

(٧٧) دراسة في فقه اللغة، صبحي الصالح، (ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١)، ص: ١٤١.

(٧٨) المرجع نفسه، ص: ١٥١.

تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة إلى معان لا حصر لها؟ وهل المفردات العربية المدونة في (لسان العرب) مشتقة من ثمانية وعشرين فونيما؟[٧٩].

٥ – نظرية الأصوات التعجبية العاطفية أو نظرية Pooh - pooh:

تذهب إلى أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة تعجبية عاطفية، صدرت عن الإنسان بصورة غريزية، للتعبير عن انفعالات: من، فرح، أو وجع، أو حزن، أو استغراب، أو تقزز، أو تأنف، وغيرها. فتنقبض الأسارير أو تنبسط، ويضحك، أو يبكي، أو يئن.... ولذا تشابهت بعض الألفاظ في لغات مختلفة، مثل: (وي) للتحسر والتلهف في الساميات، وفي الإنكليزية Wa - La (واف) وكذلك يقول الألماني Pfui للتأفف[٨٠].

حينما نشأت اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزية، وانقرضت شيئاً فشيئاً. ومن أشهر من ذهب هذا المذهب: مكس مولر Max Mueller، ورينان Renan [٨١].

ويقول جسبرسن: إن الأصوات الناجمة عن تلك الانفعالات – كما نشاهد الآن – لا ترتبط بمظاهر النشاط اللغوي، ولكنها نشاط صوتي، قد تكون بعيدة عن سياق الحديث، وغير خاضعة للقواعد اللغوية[٨٢].

٦ – نظرية الاستجابة الصوتية للحركة العضلية، أو نظرية Yo - he - ho:

تذهب إلى أن اللغة الإنسانية بدأت بالمقاطع الطبيعية التي يتفوه بها الإنسان عفوياً عندما يستعمل أعضاء جسمه في عمل يدوي، يخرج هذه الأصوات لتخفف من حدة العمل وعبئه. فالمجهود العضلي الشاق مع التنفس

---

(٧٩) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص: ١٩ وما بعدها.
(٨٠) المرجع السابق، ص: ٢٠، وانظر دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: ٢٣.
(٨١) فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي، ص: ١٠٠.
(٨٢) فقه اللغة العربية، إبراهيم محمد نجا، (طباعة السعادة بمصر، (د – ت))، ص: ٢٣.

الشديد ينتج عند تحريك الأوتار الصوتية هذه الأصوات المختلفة بشكل جماعي، مثل (هيلا هوب هيلا)، و(هوب هيلا ليصا)، ونلاحظ ذلك كثيراً إذا وقفنا بقرب عامل يقطع شجرة أو صخراً، أو بجانب رجل يحمل ثقلاً، أو حداداً يعمل. وتفسر هذه النظرية جزءاً من نشأة الألفاظ، ولكن يقال: أين كانت اللغة قبل هذا العمل الجماعي؟[٨٣]

٧ – اللغة ظاهرة اجتماعية:

وهي نظرية حديثة تقضي بأن اللغة – كغيرها من الظواهر الاجتماعي – نشأت كتفكير الساذجين – وقتئذ – واعتباراته، وحاجياتهم المعيشية، لم يعتملها منطق، ولم يعتورها تفكير، ثم تطورت بمرور الزمن، وتتابع التجارب، وتعقد العلائق، وتنوع المشاهد، وضغط الحاجة، واختلاف اللغات وتنوعها.

واللغات في رأي الشيخ العلايلي مرت في ثلاثة أدوار، وهي على النحو التالي:

الدور الأول: ذو المقطع البسيط، أي أدنى المقاطع، مثل ba، وهو الدور الذي ولد المقاطع الأحادية التي هي الجدول الهجائي، والذي أخذت منه كل لغة ما يناسبها، مثلاً: **(عو)** يدل على الحيوانات الزئيرية، و**(وا)** يدل على الصوت المتكرر بحركة العين، وعنه نشأ **(و)** في العبرية بمعنى **(وصل)**.

الدور الثاني: ذو المقطعين، أي صامتين + مصوتين، أو مصوت واحد، حين تطورت المقاطع الأحادية إلى الثنائية. وهذا الدور نشأ مصادفة، وبمحاكاة الطبيعة في مختلف أصواتها.

الدور الثالث: ويشمل هذا الدور الإنسان من العصر الحجري المهذب إلى أن بلغ أوج رقيه ونضجه، ولطوله قسمه الشيخ العلايلي إلى خمس حلقات:

---

(٨٣) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص: ٢٠، وانظر دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: ٢٦.

الحلقة الأولى: من العصر الحجري حتى البرونزي، وفيها استعمل إنسانها: المفردات ذات المقطع، وذات المقطعين، وذات المقاطع التي انتهت.

الحلقة الثانية: في العصر الحديدي، وعرف إنسانها الكتابة، كثرت عنده المفردات، وتركبت الجمل، وعرف الألفاظ ذات الدلالة المعنوية.

الحلقة الثالثة: فرق فيها بين الاسم والفعل، والفعل والحرف المهمل، وأتقن الكتابة، وعرف بداية الاشتقاق، وجعل الوسط موطن الزيادة.

الحلقة الرابعة: تم فيها نضجه اللغوي، ووصل إلى درجة عالية في الاشتقاق والتقليب للألفاظ، وتكلفت هذه الحلقة بتوفير كل عنصر القوة والحيوية للغة الراقية كالعربية.

الحلقة الخامسة: اكتملت فيها اللغة الحية، فلم تعد حاجة لزيادة مستزيدة تضمن بقاءها وغناها وثراءها(٨٤).

٨ – نظرية جسبرسن:(٨٥)

ذهب فريق من العلماء المحدثين وعلى رأسهم العالم اللغوي جسبرسن إلى أن النظريات السابقة لا تعطي الحقيقة كاملة، وإلى أن دراسة نشأة اللغة الإنسانية الأولى يجب أن تقوم على منهج علمي، وأسس سليمة، تعطي بعدئذ حقائق علمية يطمئن إليها الباحث: ومن ثم طالب جسبرسن:

١ – بدراسة وافية للغة الطفل.

٢ – وبدراسة لغات القبائل البدائية.

٣ – ودراسة تاريخية للتطور اللغوي.

---

(٨٤) مقدمة لدرس لغة العرب، للشيخ عبدالله العلايلي، (القاهرة: ١٩٥٠م) ص: ١١٠ – ١١١.

(٨٥) Language: Its Nature, Development & Origin: (Jespersen, Otto), London, George Allen * Ltd, (1st published 1922).

أ – **دراسة لغة الطفل ونموها:** لقد اهتم العلماء بمراحل نمو الطفل، منذ يصبح في بطن أمه جنيناً، ووجدوا أن مراحل نموه جنيناً هي مراحله نفسها بعد مولده، فقاسوا مراحل نمو لغته على مراحل نمو جسده. وقسم جسبرسن النمو اللغوي لدى الطفل إلى: مرحلة الصياح، ومرحلة البأبأ، ومرحلة التكلم.

وقسّم المرحلة الأخيرة إلى فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل، وفترة اللغة المشتركة، أو لغة الجماعة، وفي هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع، وتأثره به آخذاً في الازدياد شيئاً فشيئاً[٨٦]. ود. إبراهيم يرى في قياسهم بعض الغلو، لاختلاف الظروف التي يعيشها الطفل في العصور الحديثة، وما عاناه من ظروف قاسية في مراحله الأولى[٨٧].

ب – **دراسة اللغة في الأمم البدائية:** عدّ الباحثون أن الإنسان البدائي المعاصر، شبيه بالإنسان الأول الموغل في القدم، وتلمسوا دراسة لغات الأمم البدائية في أصواتها وحروفها وكلماتها وتركيبها، لإلقاء الضوء على ما كانت عليه نشأة اللغة الإنسانية الأولى، لعلهم ينتزعون شيئاً من صمت التاريخ في غياهب العصور السحيقة، وبعد دراسة ومقارنات مضنية، وجد تشابهاً في الأصوات ومقاطع الكلمات وتراكيب الجمل بين المجموعات اللغوية المتشابهة، مما ألقى الضوء على ما كانت عليه لغة الإنسان في العصور السحيقة.

ج – **جانب الدراسة التاريخية للتطور اللغوي:** وجه العلماء جهودهم في هذا الميدان، يعقدون المقارنات، ليصلوا إلى قوانين التطور اللغوي وقواعده، بمقارنة حال لغة من فصيلة معينة في عصر من العصور بما قبله، أي أن الدراسات بدأت تصاعدية لعصور اللغة، في مفرداتها ونصوصها ومستنداتها التاريخية، بقصد المقارنة بماضي هذه اللغة ومقارنة اللهجة

---

(٨٦) اللغة والمجتمع، د. محمود السعران، ص: ٤١.

(٨٧) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: ٢٨.

الحديثة بما كان سائداً من قبل، فإذا تجمعت لهم – عن طريق تلك المقارنة التاريخية – قواعد عامة للتطور اللغوي، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ[٨٨] لتلقي الضوء على نشأة اللغة الإنسانية الأولى.

لقد وجه العلماء إلى هذه النظرية انتقاداً أساسياً، هو أن الطفل لا يعيد نشأة اللغة، إذاً هي مكتسبة لا وراثية، فلو وضعنا طفلاً عربياً – مثلاً – في بيئة يابانية لنشأ ياباني اللغة والكلمات، أو المقاطع التي يبدأ الطفل في أول أمره لا ينطبق عليها اسم لغة، وإنما هي أصوات بدائية لأغراض عند الطفل يحس بها، وأن دراسة اللغات القديمة والبدائية أثبتت أنها ليست قديمة جداً كما توهمنا، وليست بدائية كما أحببناها أن تكون، فلم تساعدنا على الوصول إلى معرفة الأصل، بل إننا لانزال في الظلام[٨٩].

٩ – نظرية جوزيف فندريس Jvendres:

يرى جوزيف فندريس أن اللغة كانت عند السلف – الذي لم يكن مخه صالحاً للتفكير – انفعالية محضة، ولعلها كانت في الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشي أو العمل اليدوي، أو صيحة الحيوان تعبيراً عن الألم أو الفرح، وتكشف عن خوف قوي أو رغبة: بعد ذلك لعل الصيحة عدّت بعد أن زودت بقيمة رمزية كأنها قابلة لأن يكررها آخرون. ولعل الإنسان قد وجد في متناول يده هذا المسلك المريح، فاستعمله للاتصال ببني جنسه، ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت – في الواقع – وسيلة للفعل وواحدة من أنجع الوسائل التي مكّن منها الإنسان. وهكذا كان الصياح أو الغناء مزودين بقيمة رمزية يستقيها كل فرد في نفسه لاستعماله الشخصي؛ ثم قليلاً قليلاً، بفضل الاتساع المتزايد في التبادل الاجتماعي تكون أخيراً هذا الجهاز المعقد الذي لا يجاري في تراثه، وليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار[٩٠].

---

(٨٨) المرجع نفسه، ص: ٣٢.
(٨٩) نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص: ٢٢ – ٢٦.
(٩٠) اللغة، فندريس، ص: ٣٧ – ٣٩.

وينتصر لهذا المذهب د. توفيق قائلاً: فقد تخيل فندريس اللغة عند الإنسان الأول انفعالية محضة، وغناء ينظم حركة، وصيحة تعبر عن ألم أو فرح، وكاشفة عن حاجة، ثم زودت بقيمة رمزية عبر بها عن شيء، فارتضاها، وكررها بنو جنسه وسيلة للتفاهم ناجعة، يقود كل ذلك تطور مخه، وتطور جهازه النطقي، وتطور الحياة الاجتماعية فيما حوله، وتخيل خصب مقبول، وتدرج طبيعي، يتماشى مع سنة التطور في الحياة[٩١].

١٠ – نظرية النشوء والتناسل:

هذه النظرية تقوم على افتراض تحرك الوجود اللغوي على محور الزمن قبل اكتمال الظاهرة اللسانية ذاتها.

والمقصود بذلك: أنها تعزل عن مسلماتها الأولية تولُّدَ اللغة بالطفرة التلقائية، فكأنما تفرض أن تكون اللغة وُجدت في لحظة معينة بصيغة متكاملة، فهي – اذن – تتضمن وحدوية المنطلق في أصل النشأة، ثم يعقبها التوالد والتكاثر.

أول مظهر من مظاهر نظرية النشوء: محاولة الفكر الإسلامي تصوير الأطوار الجنينية التي يُرتأى أن اللغة قد مرت بها في أصل نشأتها قبل أن تكتمل، وهذه اللغة المتولدة الناشئة هي اللسان الأول الأوحد.

ويذهب **إخوان الصفاء** إلى أن منطلق اللغة كان ترامزاً بحروف هي ضرب من الأرقام الحسابية الهندية يتوصل بها إلى معرفة أسماء الأشياء وصفاتها على ما هي عليه في أشكالها وهيأتها، ثم حدثت من تلك الأرقام ألفاظ بالتلقين والحفظ تكوّن بها كلام قليل العدد، وإنما المحرك في كل ذلك هو قانون الحاجة والاضطرار، فكانت اللغة تتكاثر في النمو اللغوي هذه انعكاس لما يسميه إخوان الصفاء بواجب التغير والاستحالة[٩٢]. وهو ما

(٩١) علم اللغة العام، د. توفيق محمد شاهين، ٦٦.
(٩٢) رسائل إخوان الصفاء، ١٤١/٣ وما بعدها.

يؤول إلى تصوير عملية النمو اللغوي في تولده الجنيني وتكاثره المتعاقب إلى حد التناسخ والاستحالة، بما يشبهونه بشجرة نبتت وتفرعت فروعها، وكثرت أوراقها وثمارها، وتقسمها الأقوام، فأخذ كل قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول مواليدهم(٩٣).

أما الذي أعطى لنظرية النشوء بُعدها التأسيسي وجلاها في هندستها النظرية المتكاملة جدلياً فإنما هو **أبو نصر الفارابي** الذي جعل منها فلسفة تطورية تربط المؤسسة اللغوية بالمسمار الحضاري في الاجتماعي الإنساني، وقد تطرق للقضية من خلال بحثه في مؤسسات التكامل الجماعي من جهة نظر تاريخ العلوم والمعارف قاطبة، بمعنى أنه – في الواقع – قد حاول الغوص في مكونات النشأة الإنسانية جماعياً، فاعترضه الحدث اللساني مقوماً جوهرياً من مقومات الوجود الفردي فالجماعي(٩٤).

ويستعرض الفارابي مراحل اكتمال اللغة في ارتقائها من المحسوسات إلى المجردات حتى تسد حاجات الإنسان عند نشوء ملكاته المختلفة، ويكون ذلك وضع الألفاظ أولاً لما عرفوه ببادئ الرأي المشترك، وما يحس من الأمور التي هي محسوسات مشتركة من الأمور النظرية، مثل السماء والكواكب، والأرض وما فيها، ثم لما استنبطوه عنه، ثم من بعد ذلك للأفعال الكائنة عن قواهم التي هي لهم بالفطرة، ثم للملكات الحاصلة عن اعتياد تلك الأفعال من أخلاق أو صنائع وللأفعال الكائنة عنها، بعد أن حصلت ملكات عن اعتيادهم، ثم من بعد ذلك لما تحصل لهم معرفته بالتجربة أولاً أولاً، ولما يُستنبط عما حصلت معرفته بالتجربة من الأمور المشتركة لهم أجمعين، ثم من بعد ذلك للأشياء التي تخص صناعة من الصنائع العملية من الآلات وغيرها، ثم لما يستخرج ويوجد بصناعة صناعة إلى أن يؤتى على ما تحتاج إليه الأمة(٩٥).

---

(٩٣) المرجع نفسه، ٣/١٤٩.
(٩٤) كتاب الحروف، ص: ١٣٤ وما بعدها.
(٩٥) المرجع نفسه، ص: ١٣٨.

١١ – نظرية الإشارة:

يذهب بعض العلماء إلى أن الإنسانية قد ظلت صامتة لا تتكلم إلا بالإشارة(٩٦).

وتتطور الرموز اللغوية عادة بتطور المجتمعات البشرية والمعتقدات السائدة فيها، فقد كانت اللغة في أول أمرها تتأثر بمعتقدات السحرة، ثم تطورت فأصبحت عملية وجدانية، وأخيراً مرحلة التعبير العقلي؛ ذلك أن المجتمع البدائي كان يعتقد في قوة السحر التي تكمن في الألفاظ، وترتبط بالأشياء ارتباطاً وثيقاً، ثم تطورت اللغة في مدارج التعبير العاطفي الوجداني، فاستغلها الكهنة للتأثير في الناس بالعبارات الغامضة والكلمات ذات الجرس الموسيقي التي تشبه المخدر(٩٧).

تعقيب ومزيد من المناقشة

يبدو لي أن معظم هذه النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة غير مستندة إلى أدلة مقنعة؛ لأنها لم تفسر إلا جانباً ضيقاً جداً من اللغة، سبق أن ذكرت أن ابن فارس يرى أن لغة العرب توقيفية، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها...**﴾ هذا القول قابل للمناقشة من أوجه عدة، وهي على النحو التالي(٩٨).

أحدها: لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعث على التوقيف، والتقدم باطل، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلابد من واسطة بين الله والبشر – وهي النبي – لاستحالة خطاب الله مع كل أحد.

---

(٩٦) Origine et prehistorie due Language: (Revesz): traduction de L, Homburger: Payet, printed in Paris, 1950, p: 25 sa.

(٩٧) الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، (القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٦٩م) ص: ١٢.

(٩٨) المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ١/ ١٨ وما بعدها.

وبيان بطلان التقدم: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ...﴾ (إبراهيم: ٤) وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة.

الثاني: لو كانت اللغات توقيفية فذلك بأن يخلق الله – تعالى – علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غير العاقل، أو بأن لا يخلق علماً ضرورياً أصلاً والأول باطل، وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة؛ لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضرورياً، ولو كان كذلك لبطل التكليف، والثاني باطل؛ لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هذه الألفاظ، والثالث باطل؛ لأن العلم بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر ولزم التسلسل.

الثالث: ولو أن اللغات ثبتت توقيفياً من جهة الله – تعالى – لكان ينبغي أن يخلق العلم بالصيغة، ثم يخلق العلم بالمدلول، ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلاً على ذلك المدلول، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته، ولو خلق العلم بذاته بطل التكليف، وبطلت المحنة.

الرابع: أن الآية التي قدمها ابن فارس لا حجة له فيها، فإن الحكم فهيا عموم، والعموم ظاهر في الاستغراق، وليس بنص، بل الآية لا تدل على أن الله علَّمه النطق واللغة بل تدل على تعليمه إياه العلوم الكثيرة التي تفوق بها على الملائكة أجمعين؛ لأن تفضيل الله آدم كان بالعلم لا باللغة؛ لأن الملائكة يعرفون النطق واللغة، ويتخاطبون بها فيما بينهم(٩٩)، كما يتخاطبون مع الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣١ – ٣٢)،

(٩٩) المصدر نفسه، ١/ ٢٥.

كذلك كانوا يتخاطبون مع آدم وحواء والأنباء والرسل، حيث بعث الله – تعالى – جبريل – عليه السلام – خاصة إليهم، يتحدث معهم، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (النجم: ١ – ٧).

فكل من (شديد القوى وذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى) يدل على أنه جبريل عليه السلام[١٠٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**كان النبي** – ﷺ – **بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟... فقال: هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم**»[١٠١]. واللغة يشترك فيها كثير من المخلوقات: من الملائكة، والحيوانات، والطيور، والحشرات، وغيرها. ويقول تعالى على لسان **سليمان ابن داود**: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ ...شَيۡءٍۖ﴾ (النمل: ١٦)، وقال أيضاً على لسان **الطير الهدهد**: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢)، وقال أيضاً على لسان **النملة**: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

يتبين من هذه الآيات أن الله لم يفضل آدم وأسجد له الملائكة كما قال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ...﴾ (البقرة: ٣٤)، باللغة وعملية النطق، بل بسبب العلم والعقل، وإليه أشار قائلاً: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (الإسراء: ٧٠).

---

(١٠٠) تفسير ابن كثير، ٤:٢٤٩.

(١٠١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، رقم الحديث: ٥٠.

ويقول **ابن كثير:** جعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله، وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنوية(١٠٢).

وآدم كان يعرف اللغة والنطق قبل هبوطه من الجنة، والأدلة على ذلك كثيرة منها: حواره مع **إبليس**: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠)، والتحاور مع الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾ (الأعراف: ٢٢ – ٢٣).

يرى ابن فارس أن الله – عز وجل – وقّف آدم على اللغة، ثم بعده عرب الأنبياء – صلوات الله عليهم – نبياً نبياً، حتى انتهى إلى نبينا محمد – ﷺ – ثم قر الامر قراره، فلا نعلم لغة حدثت من بعده(١٠٣).

فقول ابن فارس لا يستند إلى أدلة نقلية ولا عقلية، كما سبق بيانه.

يتبين لي أن اللغة ليست توقيفية، بل الله منح آدم القدرة على النطق والتعبير أولاً، ثم أعطاه المقدرة على التصرف فيه، والدليل على أنها ليست توقيفية كثرة اللغات في العالم؛ لأن اللغة لو كانت توقيفية لما نشأت هذه اللغات في الدنيا، لأن آدم كان يتحدث باللغة الواحدة – سواء أكانت عربية أم غيرها – ثم انقسم أبناؤه بعد ما كثروا، فصاروا أحياء، ثم قرى، ثم أمصاراً، ثم ممالك، فبسبب الأبعاد الزمانية والبيئية والجغرافية وغيرها تباينت ألسنتهم تباين عاداتهم وملابسهم وسائر خصائصهم، حسبنا بعض الأدلة من اللسان العربي: أننا لم نكد نجد قبيلة إلا ولها خصائص في مطوقها، ولا أهل بلد إلا ويخالفون أهل البلد الآخر، بل نرى ذلك بين القرى المتجاورة، وبين أهل ناحيتين من البلد. منها ما هو بالإبدال: كقولهم في (الخباء)

---

(١٠٢) تفسير ابن كثير، ٣/٥١.

(١٠٣) الصاحبي، ابن فارس، ص: ٣٧.

(الخباع) وفي (إذن) (عذن) وهي عنعنة تميم وقيس. ويقولون: (لبيش اللهم لبيش) أي لبيك، ويقولون: (عليش) أي عليك ومنك، وغيرها كثير جداً[١٠٤].

من هنا يتضح أن اللغة ليست توقيفية، لو كان كذلك لما أصبحت هذه اللهجات ثم اللغات بل ينبغي أن يتحدث بلغة واحدة دون تغيير أي شيء منها.

أما نظرية الاصطلاح فهي جديرة بالمناقشة أيضاً؛ لأنها بصدد تخمين خيالي، وفرض عقيم، تحمل في طيها آية بطلانها، وقد ذهب القائلون لها في تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول. ولم يبين هؤلاء بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الأفعال والحروف والمعاني، مع أن هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يشير إليه المتواضعون. وأنه من المستحيل أن يقع الاصطلاح على أول اللغات من غير معرفة المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه، ولم يثبتوا من هم المتواضعون؛ لأن في العالم أكثر من ثلاثة آلاف لغة، هل كل قوم تواضعوا؟ أم وقع التواضع على لغة واحدة، وما تلك اللغة؟ ولكن القرآن الكريم كشف الحجاب، وبين أن آدم هو الإنسان الأول الذي استعمل اللغة بتعليم من الله – عز وجل –، ولكن هذا لا يعني أنه وقّفه على هذا، بل أعطاه المقدرة على تطوير اللغة بوضع بعض الكلمات كما نشاهد الآن في عالمنا الحاضر.

وأما **نظرية محاكاة أصوات الطبيعة**: كأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء، فهي غير منطقية؛ لأن لغة البدائيين ومراقبة المراحل الاولى للأطفال لا تساعدنا على الوصول إلى شيء. ذلك أنه لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين على الرغم من الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان، فهم يتكلمون – أحياناً – لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً،

(١٠٤) أبحاث لغوية، إبراهيم اليازجي، ص: ١٢.

ولكن منهم من يتكلم على درجة من البساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها، ثم أن الكلمات التي قد تبدو أنها تقليد لأصوات الطبيعة قليلة جداً، لا تمثل لغة، بل اللغة قد نشأت مع نشأة الإنسان الأول، كما مر بنا سابقاً، ولكن الله منحه الاختيار والقدرة على تطويرها بشتى الوسائل.

بناء على هذا فإن الإنسان قد استطاع أن يطور اللغة من مجرد صراخ أو ضجيج للتعبير عن الانفعالات الساذجة في مبدأ الأمر: كالخوف، والفرح، والحزن، إلى ألفاظ تحمل المعاني المختلفة، وتشبه هذه النظرية **نظرية ding dong**، وقد رُفضت هذه النظرية – كما مر بيانها –؛ لأن المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني لا تمثل اللغة، بل هي تطور لها، ولو كانت هذه النظرية صحيحة، لكان كل إنسان يهتدي إلى كل لغة، ولما صح وضع اللفظ للضدين، كالحميم للبارد والحار، والجون للأبيض والأسود[١٠٥]، ولما كانت اللغات مختلفة في الرمز على الشيء الواحد.

وأما **الجواب عن نظرية الأصوات التعجبية العاطفية**: فمثله كمثل الذي مر في النظرية السابقة؛ لأنها – أيضاً – تفسر بعض الكلمات، وهي توقعنا في نظرية الغرائز المعقدة، وأن الأصوات الصادرة عنها فجائية منعزلة عن الكلام الذي يصدر إرادياً.

وكذلك نظرية الاستجابة الصوتية، لا تمثل لغة أبداً، وإنما هي تطور لها؛ لأننا لا نحصل إلا على بعض الكلمات بالمجهود العضلي الشاق مع التنفس الشديد الذي ينتج عن تحريك الأوتار الصوتية المختلفة بشكل جماعي، مثل (هيلا هوب) و(هوب هيلا ليصا).

وأما **النظرية التي تذهب إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية** نشأت بناء على حاجات الناس المعيشية دون تفكير – فهي لا تستند إلى أدلة نقلية ولا عقلية وهي مجرد تخمين؛ لأن شأن اللغة ليس اعتباطياً ولا جزافاً، وإنما هو مرتبط

---

(١٠٥) المعجم الوسيط، مادتا (حمّ وجون).

بأصل الإنسان نفسه، إذا ثبت أن له خالقاً فقد ثبت أنه هو الذي خلق اللغة وعلّمها الإنسان وعلّمه ما لم يعلم.

وحاول **جسبرسن أن يبني نظريته** على أسس علمية منهجية بعد أن استفاد ممن سبق وما جد حوله من بحوث في مجال العلوم الأخرى، ولكنه وقع – أيضاً – في اضطراب شديد؛ لأن الطفل ليس لديه قدرة على خلق اللغة، وإنما هو مقلد لا مبتكر، وكذلك دراسة اللغات القديمة والبدائية والدراسة التاريخية للتطور لا توصلنا إلى أصل اللغة، وإنما توصلنا إلى كيفية تطور اللغة، ولكن دراسة الإنسان الأول وبدء خلقه ونشأته وتاريخ تطوره تؤدي إلى حقائق علمية ثابتة.

ويصور **جوزيف فندريس** أن اللغة عند الإنسان الأول انفعالية محضة، وغناء ينظم حركة، وصيحة تعبّر عن ألم أو فرح، كأنه خلق بدون أن يعبّر ما في ضميره، كأنه خلق عبثاً لا يعرف كيف يتكلم، ولذلك يرى بعض العلماء أن الإنسانية قد ظلت صامتة لا تتكلم إلا بالإشارة.

ولاشك أن قيمة **نظرية النشوء والتناسل** لا تتكشف في منطلقها المنهجي إذ هي تصدر عن افتراض وجود إنساني متكامل أو في حكم المتكامل قبل تمام اللغة، وإنما تكمن من جهة في محتواها عند تحسيس المراحل في نشأة اللغة ونموها قبل بلوغها الاكتمال – تعبيراً وإبداعاً – ومن جهة أخرى فيما أفضت إليه بالضرورة.

يخيل إلي أن الإنسان لو عرف أصله لعرف كنه لغته، والذي أذهب إليه وأنتصر له هو أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي علّم آدم الإنسان الأول اللغة وهو القائل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١ – ٤)، الإنسان هو آدم عليه السلام[١٠٦]، والبيان هو الكلام والنطق. قاله الحسن، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر.

---

(١٠٦) المصحف المفسر، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جمعه أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي، (دار الغد الغربي، القاهرة، ١٩٩٣م) ص: ٥٣١.

ويرى ابن كثير أن قول الحسن أقوى؛ لأن السياق في تعليمه – تعالى – القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون بتيسير النطق على الخلق[١٠٧]. لقد علّمه النطق حين خلقه ونفخ فيه من روحه، فلما دخلت الروح في رأسه عطس، فقال بإلهام الله: **(الحمد لله رب العالمين)**، فقال الله له: **يرحمك الله يا آدم**[١٠٨].

ولقد روى **الحاكم** هذا الخبر في المستدرك في حديث خلق آدم عن أبي هريرة قال: **قال رسول الله** – ﷺ –: «**لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: رحمك الله ربك يا آدم، وقال: يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملأ منهم جلوس، فقل: السلام عليكم، فذهب فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك وبنيهم...**»[١٠٩]. هذا الحديث يدل بشكل واضح على أن الله علّم آدم اللغة حين خلقه، ولم يفضله على الملائكة أجمعين باللغة؛ لأن الملائكة كانوا يعرفون اللغة والنطق قبل خلقه.

خلاصة ما تقدم: أن نشأة اللغة مرتبطة بنشأة الإنسان الأول، وقد ثبت أن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام، والله علّمه اللغة حين خلقه، ولكن ليس على سبيل التوقيف بحيث لا يقع النطق إلا بما علّمه، بل أعطاه الاختيار في التطوير والتغيير، بناء على ذلك طوّر أبناؤه اللغة الأولى بالمواضعة حيناً؛ لأننا نرى في عالمنا الحاضر آلافاً من الكلمات المستحدثة أسماء للمخترعات الحديثة لم تكن قبل، كما طوروها بمحاكاة الأصوات، وبالغرائز الخاصة، والدوافع، والاحتياجات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، حينا آخر؛ حتى تفرعت عن اللغة الأولى أكثر من ثلاثة آلاف لغة في العالم بسبب التباعد الزماني والبيئي والجغرافي.

---

(١٠٧) المصدر السابق، ص: ٥٣١، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/٢٧٢.

(١٠٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/٧٣.

(١٠٩) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

المصادر والمراجع العربية

- مصحف المدينة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية.
- أبحاث لغوية، إبراهيم اليازجي، ت: يوسف قزماخوري، دار المراء للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.
- الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي، ط٢، مط. الإمام بمصر، (د – ت).
- الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٦٩م.
- الألسنية: علم اللغة الحديث مبادؤها وأعلامها، ميشال زكريا، لامط، بيروت، ١٩٨٠م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن حبر الجاحظ، ت: عبدالسلام محمد هارون، ط٥، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبدالحميد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: الشيخ النجار، دار الكتب المصرية، ١٣٧١هـ.
- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٨٣م.
- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ط١، القاهرة، ١٩٥٨م.
- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، إخوان الصفاء، بيروت، ١٩٥٧م.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ت علي فودة، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن

فارس، ت: عمر فاروق الطبّاع، مكتبة المعارف، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، ت: الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، دار الفكر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب، د. لطفي عبدالبديع، ط٢، مطبعة دار البلاد، جدة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- العربية في الأعلام العربية، د. محيي الدين عبدالحليم، دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٨م.
- علم اللغة، د. علي عبدالواحد وافي، مكتبة النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٦٢م.
- علم اللغة بين القديم والحديث، د. عبدالغفار حامد هلال، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- علم اللغة العام، د. توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٩٩هـ - ١٩٨٠م.
- فقه اللغة العربية، إبراهيم محمد نجا، ط السعادة بمصر، (د - ت).
- فقه اللغة في كتب العربية، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، (د - ت).
- فقه اللغة وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
- في علم اللغة العام، د. عبدالصبور شاهين، ط٢، ١٣٩٧هـ.
- كتاب الحروف، أبو نصر الفارابي، ت: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ.
- اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة، د. حسن ظاظا، دار الفكر، القاهرة، (د - ت).
- اللغة، ج فندريس، تعريب الدواخلي والقصاص، ط القاهرة، ١٩٥٠م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن

محمد بن قاسم، طبعة المكتب السعودي بالمغرب، مكتبة دار المعارف، الرباط (د – ت).
- المزهر في علوم العربية وأنواعها شرح محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٦م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د – ت).
- المصحف المفسر، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جمعه أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، ط٢، القاهرة، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي، ط١، القاهرة، ١٩٣٧م.
- مقدمة لدرس لغة العرب، عبدالله العلايلي، القاهرة، ١٩٣٦م.
- نصوص في فقه اللغة العربية، د. السيد يعقوب بكر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.
- نظريات في اللغة، أنيس فريحة، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م.

المصادر الأجنبية

- Language: Its Nature, Development & Origin: (Jespersen Otto), London, George Allen * Ltd, (1st published 1992).
- Lecturers of Lingustics: (Berezin), printed in Moscow, 1969.
- Origine et prehistorie due Language: (Revesz): Traduction de L, Homburger: Payet, Printed in Paris, 1950.